محمد الماغوط: الشاعر ومتسكع الأرصفة الحزين [1-2]

شعرية السلوك الوجودي لرجل الشارع والمقهى!

محمد برغوت *

■ إن المتأمل في المتن الشعري لمحمد الماغوط يجد أن لهذا الشاعر حساسية خاصة في مناخ متقلب لم يساعده على الانطلاق بكل حرية كما كان يشتهي، ومن ثم يستنتج قارئ هذا المتن أن مسحة الحزن طاغية عليه بشكل لافت للانتباه. فهو «حزين في ضوء القمر وعلى الارصفة، وفي الحواري والمقاهي والماغوط حزين في مفردات اللغة، وفي الصور، وفي تركيب القصيدة، حزين في زرقة مدى الشعر، الماغوط حزين فكرا، وسلوكا، وأعصابا».

فأنت حين تقرا عناوين دواوينه، تجده حزينا في: «ضوء القمر» ديوانه الأول، وحزين في: «غرفة بملايين الجدران» ديوانه الثاني، وحزين كذلك في: «الفرح ليس مهنتي» ديوانه الثالث. أما إذا تأملت عناوين قصائده، فستلاحظ أنه حريص على اختيار عناوين تنسرح في حقلها الدلالي على قتامة لا ينكرها المتتبع وهذه أمثلة عنها: «حزن في ضوء القمر»، «جنازة النسر»، «الشتاء الضائع»، «الغرباء»، «جناح الكآبة»، «حريق الكلمات»، «بكاء في رحلة صيد»، «اصفرار العشب»، «الدموع»، «خريف الاقنعة»، «اليتيم»، «بكاء السنونو».

وهكذا يبدو أنه من الصعب ان يبحث الدارس في شيء متعلق بالماغوط قبل هذا الحزن الطاغي على جل ما كتب من شعر، ومصدر الحزن هذا نابع من كونه متسكعا كبيرا. فالرصيف عنده حاضر في شعره بحساسية فائقة، لأنه ملجأ ـ أمثاله ـ المنبوذين والمتشردين.

صحيح أنه شاعر من الريف، والكلمة عنده «أوزة بيضاء» ـ كما قال ـ، إلا أنه شاعر مدينة بالمعنى العميق، تنغرس قدماه في أرصفة دمشق كما في لثة، ويطل على أرصفتها كل صباح، وهو يقذف بقديمه الحصى في طرقها، وهو ينشد فيها الحرية والراحة والرغبات الصغيرة.

يقول عنه محمد جمال باروت: «إن حساسيته الساخطة والتهكمية، كانت مشدودة إلى مستوى من المستويات الوجودية، ولكن ليس المستوى الوجودي المعرفي الذي عرفناه، عند جيله، بل المستوى الذي يشير بشكل ما إلى ما يمكن اعتباره سلوكا وجوديا لرجل الشارع والمقهى. فقد بقي الماغوط صورة مرهفة وحساسة لأحلام التغيير من جهة، ولما يسميه بالشبيبة الساقطة من جهة ثانية، والتي ألحدت بنظام القيم السائد. لعل هذا يفسر تسميته بواحد من الشعراء الغاضبين في مطلع الستينيات».

هكذا إذن يقدم الماغوط نفسه للقارئ جارحا جريئا، ساقطا صريحا، غريبا وحزينا وصادقا، ولعل موقف الحزن الصادق، جعل جو القصيدة عنده تلقائيا ومنسجما محتوى وتركيبا واخيلة. يقول في قصيدة «النسر»:

«ايها الحزن.. يا سيفي الطويل المجعد
الرصيف الحامل طفله الاشقر
يسأل عن وردة أو أسير،
عن سفينة وغيمة من الوطن..
والكلمات الحرة تكتسحني كالطاعون
لا امرأة لي ولا عقيدة
لا مقهى ولا شتاء
ضمني بقوة يا لبنان
أحبك أكثر من التبغ والحدائق
... وأنا المس تجاعيد الأرض والليل
اسمع رنين المركبة الذليلة
والثلج يتراكم على معطفي وحواجبي
فالتراب حزين، والألم يومض كالنسر
لا نجوم فوق التلال
التثاؤب هو مركبتي المطهمة، وترسي الصغيرة
والأحلام، كنيستي وشارعي
بها استلقي على الملكات والجواري
وأسير حزينا في أواخر الليل».

إن إحساس الشاعر بالحزن قد منحه قدرة غنائية تتجاوز الغنائية الفردية العاطفية، إلى ما يمكن تسميته بـ «غنائية حديثة» يتكئ فيها على تفاصيل الحياة اليومية من خلال ظهور الواقع داخل النص في صورة علاقات ووقائع. ومن هنا تبدو هذه الغنائية ـ وهي تعبر عن مشاعرها وانفعالاتها وحسها المتوتر ـ وكأنها اقتراب من كتابة الحياة اليومية في الشارع والمقهى والحارة الشعبية.

ويغذي الشاعر غنائيته هذه بمحسة من القلق الوجودي عبر طاقة من الانفعالات الحادة باستمرار كما هو واضح في المقطع الشعري:

«مخذول أنا لا أهل ولا حبيبة
أتسكع كالضباب المتلاشي
كمدينة تحترق
والحنين يلسع منكبي الهزيلين
كالرياح الجميلة، والغبار الأعمى
فالطريق طويلة
والغابة تبتعد كالرمح .
أو كما يبدو جليا في مقطع آخر:
«فأنا رجل طويل القامة
وفي خطواتي المفعمة بالبؤس والشاعرية
تكمن أجيال ساقطة بلهاء
مكتنزة بالنعاس والخيبة والتوتر
فأعطوني كفايتي من النبيذ والفوضى
وحرية التلصص من شقوق الأبواب
وبنية جميلة».

يبدو الشاعر كمن فقد حنان العالم، ودفء الحياة.

ولذلك فهو خائب ومتوتر ينشد الفوضى والمتعة العابرة.

ويبالغ الشاعر في التعبير عن حساسيته الساخطة على الحياة والأحياء معا في جل ما كتب من شعر، والمبالغة عنده «توهم بالصدق الانفعالي للحظة من جهة، وبحدة الانفعال والتوتر من جهة ثانية. وهي أساسا مجاز النطق اليومي عندما يكون منخرطا في علاقة اجتماعية إشكالية أو تحمل طبيعة الصراع.

ونحن نرى أن «المبالغة» في شعر الماغوط هي البناء المجازي للجانب الساخط في حساسيته الشعرية، هذا السخط هو في الآن ذاته تعبير ايديولوجي، يرتبط اساسا بالتكوين الاجتماعي والنفسي والانفعالي والثقافي لجيل الماغوط، والذي يتميز ـ أي هذا التكوين ـ بالرغبة العارمة في التغيير، ولكن مع نفاد الصبر، وضيق النفس والأفق».

وهذا ما يتضح حين يقول الشاعر في قصيدة: «القتل»:

«الشرق الذليل الضاوي في المستنقعات
آه، إن رائحتنا كريهة
إننا من الشرق
من ذلك الفؤاد الضعيف البارد
إننا في قيلولة مفزعة يا ليلى
لقد كرهت العالم دفعة واحدة
هذا النسيج الحشري الفتاك
وأنا أسير أمام الرؤوس المطرقة منذ شهور
والعيون المبللة منذ بدء التاريخ
ماذا تثير بي؟ لا شيء
إنني رجل من الصفيح
أغنية ثقيلة حادة كالمياه الدفقة
كالصهيل المتمرد على الهضبة
... بالظلم والنعاس يتلاشى كل أثر
بالأنفاس الكريهة
والأجساد المنطوية كالحلزونات
بقوى الأوباش النائمة بين المراحيض
سنبني جنينة للأطفال
وبيوتا نظيفة للمتسكعين وماسحي الأحذية».

وعن نفاد صبره واستعجال رغبته في تغيير هذا الواقع الذي يؤرقه، يقول:

«أريد أن أضم إلى صدري أي شيء بعيد
زهرة برية
أو حذاء موحلا بحجم النسر
أريد أن آكل واشرب وأموت
وأنام في لحظة واحدة
إنني مسرع مسرع
كغيمة أصيبت بالجرب
كموجة وحيدة مطاردة في البحر».

إن هذا الجانب الساخط في حساسية الماغوط الشعرية نابع من وقعه الذي لا تكاد تلوح فيه بارقة أمل ولذلك فهو يرتد إلى ذاته التي سئمت العالم كله، وكرهته لأنه ليس إلا نسيجا حشريا فتاكا، ومن ثم تتسع دائرة الرؤية السوداء حين يقر بانهزامه وتوجسه من المستقل، فيستشعر قرب نهايته: «يخيل لي أنني أتهاوى على الارصفة
سأموت عند المنعطف ذات ليلة
وأصابعي تتلوى على الحجارة كديدان التفاح
دون أن ينظر إلي أحد.
إنني أرى نهايتي
المح خنجرا ما في الظلام مصوبا إلى قلبي
عربة مطفأة
تقل طاولتي وأوراقي إلى عرض الصحراء.
ستهب ريح قوية آنذاك
تداعب أظافري القصيرة
وتكنس قصائدي في الشوارع كقشور الخضراوات».

يبدو الشاعر يائسا في هذا المقطع الشعري نتيجة اصطدام حلمه بالواقع، وهو يعرف انه حالم و«رومانتيكي»، كما يعرف أن زمن الرومانتيكيين قد مضى، لقد جاء الشاعر متأخرا كما يقول:

«يخيل لي أنني اكثر الأموات كلاما
لقد جئت متأخرا إلى هذا العالم
كزائر غريب بعد منتصف الليل
كان يجب أن أخلق مع أولئك الرومانتيكيين
القدامى
ذوي اللحى المتهدلة
والياقات التي يأكلها العث».

لقد خاب بحث الماغوط المحموم عن بديل يحقق له توازنه في مدينة الناس ومن ثم لم يتحقق حلمه، وهذا الحلم كان من المفروض ـ يقول وفيق خنسة: «أن يكون معوضا عن حرمان الشاعر الذي عاناه. فالماغوط ككل أبناء الريف المثقفين ـ أو حملة الشهادات ـ الذين تغريهم المدينة فيرحلون يصطدمون دفعة واحدة مع واقع مغاير. والماغوط تعود في طفولته على سلمية البسيطة الكريمة الطليقة، فصدمته المدينة عندما قدم إليها، وسلبته براءته، وقيدته لأنها قلصت من نشاطه الاجتماعي الأسروي، أي أنها أفقدته إلى الأبد الجو العائلي الحميم في القرية بين الأهل والجيران. ولذلك فالأرصفة حنون كأمه، لأنها تؤويه، ولأنها مفتوحة كالريف على الشمس والريح والمطر.. لذلك يطالب الماغوط بالشوارع الطويلة جدا، ولذلك لا تخلو قصيدة له من مفردتي التسكع والأرصفة، لدرجة أنه يمارس التسكع في خياله على الارصفة التي لا يقدر على الرحيل إليها.

«انزعوا الارصفة
لم تعد لي غاية أسعى إليها
كل شوارع أوروبا
تسكعتها في فراشي
أجمل نساء التاريخ
ضاجعتهن وأنا ساهم في زوايا المقهى».

الخيال إذن، هو أداة تعويض يمنح الشاعر فضاء يحقق له رغباته في الوهم ويسند قدرته على تحمل الحياة. وبالإضافة إلى عنصر الخيال هذا، هناك السفر. فرحلة التسكع عند الماغوط بدأت تحت ضغط هاجس السفر، ولذلك فالرحيل المستمر يشكل انعتاقا من رتابة الحياة في المدينة، وانطلاقا نحو المغامرة والحرية.

وهذا السفر هو الذي يحقق للماغوط لذة التسكع، ولذلك فهو يبدو في قصائده سفرا افتراضيا يشبع رغباته القوية في السفر يوازي عنده الحرية والطفولة وروح المغامرة:

سأودع أشيائي الحزينة في ليلة ما..
بقع الحبر
وآثار الخمرة الباردة على المشمع اللزج
وصمت الشهور الطويلة
والناموس الذي يمص دمي
هي أشيائي الحزينة
سأرحل عنها بعيدا.. بعيدا
وراء المدينة الغارقة في مجاري السل والدخان».

ويقول في قصيدة أخرى:

«لا أريد أبا يلوح بشملته
أو حبيبة تنعق لأجلي كالغراب
أريد أن ارحل هكذا
فقيرا وكسولا
في كل عام أخطو خطوة
وفي كل جبل اكتب كلمة
لقد آن الأوان
لتمزيق شيء ما
للإبحار عنوة تحت مطر حزين...
لا كمغامر
تلفه سيول من الحقائب والأزهار
بل كفأر خسيس
كفأر دامع العينين
يستيقظ مذعورا
كلما ناحت إحدى البواخر
وتألقت مصابيحها
كعيون الضباع المبللة
يا أرصفة أوروبا الرائعة
أيتها الحجارة الممدة منذ آلاف السنين
تحت المعاطف ورؤوس المظلات؟
أما من وكر صغير
لبدوي من الشرق؟
يحمل تاريخه فوق ظهره كالحطاب».

ان الشاعر يوهمنا برغبته في الإبحار والسفر بعيدا ـ إلى أوروبا في هذه القصيدة ـ ولكن الماغوط اكتفى من السفر ـ كما يقول وفيق خنسة ـ «بارتطام الحقائب على ظهره من مكان إلى مكان في الحلم واكتفى بالقول للتي تبحث عن خطوط العمر والخط في راحته أن هذه الخطوط انمحت من حمل الحقائب! في الوقت الذي بقي الماغوط كسولا وداجنا ومقيما لا يغادر.

إلا أن السفر في شعر الماغوط مرتبط عنده بدلالتين اثنتين:

ـ طلب الحرية.

ـ والظمأ للحياة النظيفة القائمة على مطالب الانسان في الحب والحياة الكريمة.

وكما كان الخيال والسفر عنصري تعويض عن جفاف الواقع وقساوته، ووسيلتين يلجأ إليهما الشاعر للتخفيف من زفرات الحزن والألم، والاحتماء من لعنة الرفض والاحتجاج، نجده يستعين بعنصر ثالث يحقق له هذا التعويض، وهو الهروب نحو المرأة والخمرة، ونشدان الحنان المفقود في جهامة الواقع، والتماس النشوة العابرة.

فالتلذذ بشرب الخمرة والاستمتاع بمفاتن المرأة هو عبارة عن مسكن مؤقت يعمل على تهدئة أوجاع الجسد وآلامه، كما يعمل على إخماد الروح المعذبة، وعن هذا الهروب نحو المرأة والخمرة يقول الماغوط:

«فأنا متشرد وجريح
أحب المطر وأنين الأمواج البعيدة
من أعماق النوم استيقظ
لأفكر بركبة امرأة شهية رأيتها ذات يوم
لأعاقر الخمرة واقرض الشعر».

ويقول في مقطع من قصيدة أخرى:

«وكنت أحبك يا ليلى
أكثر من الله والشوارع الطويلة
وأتمنى أن أغمس شفتيك بالنبيذ
وألتهمك كتفاحة حمراء على منضدة».

يبدو الشاعر فيما كتبه عن المرأة أنه مكبوت برغباته الدفينة للاستمتاع بجسدها، لذلك فهو لا يتورع في التعبير عن هذه الرغبات التي تظهر جلية في صور حسية متعددة، إنها مشتهاة دائما. وتحضر «ليلى» في ديوانه الاول: «حزن في ضوء القمر» حضورا قويا وهو يخاطبها بلغة الجسد في أغلب الاحيان:

«قل لحبيبتي ليلى
ذات الفم السكران والقدمين الحريريتين
إني مريض ومشتاق إليها».

والمرأة عنده معزولة عن شروطها الاجتماعية، وذات وظيفة واحدة هي: إشباع رغبته الجنسية:

«آه كم أود
أن آكل لحم النساء بالملاعق
أن أقضم أكتافهن كالفهد»
«... أنا سيد الأحلام
وزعيم الأرائك الفارغة
أحلم بأصدقاء من الوحل
بأمطار من النار
بحبل هائل من النار فوق ظهري
تجلس على سفوحه نساء الشرق الجميلات
ذوات الآباط الحليقة
والغدائر المزوجة بالعطر والتوابل
أحلم بامرأة صغيرة كالاصبع
هناك في البراري القرمزية
حيث الأزهار ميتة
والعصافير تلمع كالأظافر على الاشجار».

أو كما يقول في قصيدة أخرى:

«أود أن أهيم فوق جسدك الصغير
وأسحقه كالوردة
أن ارفعه كبندقية صغيرة فوق التلال
فاهدئي بجواري
أيتها الطفلة الغائبة
الفراش بارد ومظلم
ونهداك عصفوران من الجمر!!»

وعن هذا الهروب نحو المرأة والخمرة يقول الماغوط:

«فأنا متشرد وجريح
أحب المطر وأنين الأمواج البعيدة
من أعماق النوم استيقظ
لأفكر بركبة امرأة شهية رأيتها ذات يوم
لأعاقر الخمرة واقرض الشعر».

ويقول في مقطع من قصيدة أخرى:

«وكنت أحبك يا ليلى
أكثر من الله والشوارع الطويلة
وأتمنى أن أغمس شفتيك بالنبيذ
وألتهمك كتفاحة حمراء على منضدة».

يبدو الشاعر فيما كتبه عن المرأة أنه مكبوت برغباته الدفينة للاستمتاع بجسدها، لذلك فهو لا يتورع في التعبير عن هذه الرغبات التي تظهر جلية في صور حسية متعددة، إنها مشتهاة دائما. وتحضر «ليلى» في ديوانه الاول: «حزن في ضوء القمر» حضورا قويا وهو يخاطبها بلغة الجسد في أغلب الاحيان:

«قل لحبيبتي ليلى
ذات الفم السكران والقدمين الحريريتين
إني مريض ومشتاق إليها».

والمرأة عنده معزولة عن شروطها الاجتماعية، وذات وظيفة واحدة هي: إشباع رغبته الجنسية:

«آه كم أود
أن آكل لحم النساء بالملاعق
أن أقضم أكتافهن كالفهد»
«... أنا سيد الأحلام
وزعيم الأرائك الفارغة
أحلم بأصدقاء من الوحل
بأمطار من النار
بحبل هائل من النار فوق ظهري
تجلس على سفوحه نساء الشرق الجميلات
ذوات الآباط الحليقة
والغدائر المزوجة بالعطر والتوابل
أحلم بامرأة صغيرة كالاصبع
هناك في البراري القرمزية
حيث الأزهار ميتة
والعصافير تلمع كالأظافر على الاشجار».

أو كما يقول في قصيدة أخرى:

«أود أن أهيم فوق جسدك الصغير
وأسحقه كالوردة
أن ارفعه كبندقية صغيرة فوق التلال
فاهدئي بجواري
أيتها الطفلة الغائبة
الفراش بارد ومظلم
ونهداك عصفوران من الجمر!!»

محمد الماغوط (القدس العربي)

* باحث في الادب الحديث

مقالُ ذكرى الحرب

كمال سبتي*

■ أبدأ مقالَ ذكرى الحربِ بالدموع كما تبدأ الأناشيدُ الحزينةُ والمراثي فأقول:

لتُطبق السماءُ على أرض بلادي لو أنها تُطبِقُ..ولن تموتَ بلادي.

ليُصْبَغْ كلُّ جدار في مدن بلادي بلون الدمِ وليَعُمَّ الخرابُ ربوعَها..ولن تموتَ بلادي.

لتأت الطائراتُ والدباباتُ وفرقُ المارينز والجنود المشاة والمَظليّين ولتَنزل الصواريخُ والقنابلُ دراكاً على مدنها..ولن تموتَ بلادي.

وليأخذوا عاصمتها وليشمتوا بنا وليُقيموا في الفندق الذي يحمل اسمَها مركزَ السي أي أي وليقولوا إنه الأكبرُ في العالم..ولن تموتَ بلادي.

وليُهيّجوا الظلامَ كلّه..بغرائز المذاهبِ والطوائف..ولن تموتَ بلادي.

***

كانت لنا بلاد يحكمها دكتاتور.

وكنا نريدها بدونه.

وكان الأملُ ممكناً وماكان أحدٌ بيننا يجرؤ على ذكر حربٍ أو احتلال.

***

إلا بعضُهم..

وكان يُعلنُ رأيه في استحياء.

***

كيف يُمكنُ حرباً أن تأتي بأمل السلام ؟

***

أكتبُ هذا المقال بالدموع وقد عمّت الفوضى بلادي.

وخُرِّبتْ مصانعُها وحقولها..ومكتباتها ومتاحفها وجوامعها وكنائسها.

***

وقد قُتِلَ الألوفُ من أطفالها ونسائها ورجالها.

***

وقد اسودّتْ مناهجُ جامعاتها في كلّ مدينة عراقية.

وقد قُتلَ وشُرِّدَ من أكاديميّيها وعلمائها عدد مَهُول..في الطبِّ والهندسة والفيزياء والذرة والكيمياء والنفط وحقول الاتصالات وعلوم الصناعة والزراعة والفضاء والأدب والتاريخ والاجتماع..إلخ

***

وقد اسودّتْ بلادي المؤسِّسةُ فناً وأدباً جديدين كلَّ حين.

وقد اسودّتْ بلادي الثائرةُ ثوراتِ اجتماعيةً كبرى.

***

وقد أضحتْ ملعبَ مخابرات دول الجوار وغيرها.

***

وقد أُعلنَتْ فيها حربٌ طائفية.

وكان الشيعيّ فيها يستجير من الجندرمة العثمانية بسنيّ فيُجيره حتى لو قُتِلَ جراءَ إجارته إياه وحُرِقَ بيتُه.

وقد ذكرتُ في مناسبة سابقة أنّ قائداً إيرانياً غزا بغدادَ بجيشه وأراد أن يفتك بالسنة فيها فقام الشيعة بتسجيلهم على المذهب الشيعي حتى يجنبوهم القتل.

***

بذا قالت بطونُ كتبِ التاريخ العراقيّ.

***

ولكنْ..

أيُمكنُ احتلالاً أن يقودَ بلادي إلى الهاوية كلّها ؟

***

لتُطبق السماءُ على أرض بلادي لو أنها تُطبِقُ..ولن تموتَ بلادي.

2

كلُّ حربٍ تمضي إلى غاياتها التدميرية كلها.

كلُّ حربٍ.

***

حين تأتي الجيوشُ إلى بلدٍ فليس في قاموسها كلامٌ عن الرحمة في المعارك.

ويحفظ الجنودُ تعليماً سافلاً منذ الأزل:

إذا جُرِحَ رفيقك أثناءَ القتالِ فلا تنشغلْ به أو تُخلِّه حتى تنتهي المعركة.

منظرو فنّ السوق العسكريّ قالوا هذا.

***

فإذا كان التعليم الصارم يمنع الجنود من الاهتمام برفاقهم الجرحى حتى لو كانوا على شفا الموتِ فما بالك بعطفهم على جنود أعداء ؟

أيُّ قلبٍ يبقى للعَطف ؟

أيُّ ضميرٍ ؟

***

بدأت الحربُ علينا.

وبدأ مروّجوها بثّ دعايتهم الحربية بيننا لمنعنا من قول آه من شدة ضربات الآلة الحربية الأميريكية.

لأنها ضرباتٌ محرِّرين.

بل قيلَ للرئيس الأميريكيّ في مكتبه الأبيض إننا سنقدم لهم الحلوى.

***

أهذا انزياح شعريّ كما جاء به جون كوهين في بنية اللغة الشعرية ؟

أي أنه خروج عن قانون اللغة المتداول اجتماعياً سيُصَحَّحُ حتى لا يكونَ خطأً لغوياً بتأويل لاحق كما يرى كوهين نفسه ؟

***

تحتلّ أميريكا البلدانَ المحكومةَ من دكتاتور والحالةَ بالديمقراطية السلمية.

فتبني لها ديمقراطيةً بالقوة.

وحين يواجهها المأزقُ كلُّه ويكثرُ عددُ الضحايا وتتفكك البلاد تقول كان الدكتاتور يحكمها بالقوة أيضاً.

***

حتى متى يتمُّ تبريرُ الحرب ؟

***

كتبنا باكينَ أكثر مقالاتنا وقصائدنا ألماً ضدَّ الحرب.

لم ننم لياليها وما قبل لياليها وما بعدها.

جُنّنا بمشاهدها وبما كتبناه عنها.

وكان غيرنا يفكر في تقديم الحلوى للغزاة.

بل أنّ عدداً من مروّجي الحرب عكَسَ مبنى الجملة في عقله: سيقدّمُ الغزاةُ له الحلوى لقاءَ ترويجه الحرب.

وهذا ليس انزياحاً شعرياً بالمرة. إنه تأويل صُحِّحَ به الانزياحُ الأولّ.

3

في أيام الحرب كنت أفكّر في الجنديّ المقاوم.

في الشهيد حصراً.

***

كان المقاومُ محاصَراً من كل جهة بخطاب أميريكيٍّ معقّد مبثوث بلَهجة عراقية.

والجيشُ جيشَ عُتاة فاشيّينَ وأنا هارب منه.

***

ماذا عن الجنديّ المكلَّف الذي مات يقاتل من أجل وطنه ؟

***

أهو فاشيٌّ ؟

***

أكان سنياً كغيره الآن ؟

أم شيعياً كغيره الآن ؟

أم مسيحياً..

أم..إلخ

***

كم ألفَ جنديٍّ مثله قتَلوا منا ؟

ولنقل كم ألفَ شهَيد ؟

أتتذكرونَ شهداءَ طريق الموت أثناءَ انسحاب الجيش العراقيّ من الكويت ؟..كم ألفَ شهيدٍ كانوا ؟

بكى العالمُ كلّه لأجلهم.

وإلاّ قليلاً منّا بكى.

***

دُفِعَ هذا الشهيدُ البريء إلى النسيان بخطاب ليس كمثله خطاب.

***

مما فعلته المقاومة الطائفية العشائرية التي أقف ضدها على الدوام في ثلاث سنوات هو أنها شوّشت المشهد.

هو أنها لم تجعل الناس يفكرون في حالهم حتى يستحضروا قيماً ثابتة في الضمير.

شوشت المشهد وجعلت الناس مهمومين بدفع أذاها هي نفسها عنهم.

***

ألا يفكر العراقيون الآن في هذا الجنديّ الذي تصدّى للغزاة ؟

***

لم يكن غيره بريئاً يقاتل من أجل بلاده.

وكلٌّ من فعلها في ما بعد فلأمر كَذِب.

وكلُّ دعاة المقاومة ومناهضة الاحتلال تجنبوه.

بل ذكروا في ما بعد قاطعي رؤوس..شهداءَ في قصائد ولم يذكروا الشهيدَ البريءَ من الدكتاتور والتناحر الحزبيّ العراقيّ.

ولكأنهم يتجنبون العراقَ الوحيدَ البريءَ من كلّ عراقٍ صنعوه.

***

جنديٌّ مكلف وليكن من البصرة والناصرية وبغداد والأنبار والموصل..إلخ

قاتلَ قوى الأرض والفضاء.

قاتلَ سحرةً غير مرئيين.

وقُتِلَ من أجل ألا يدخلَ الغزاة.

***

لكنهم دخلوا..

ولكنّ دعاةَ مقاومة الاحتلال لا يذكرونه.

***

حين تهدأ الحربُ الذهبية والعشائرية المستمرة منذ ثلاث سنين في أشكال شتّى ويصفو المشهد وينتبه العراقيون لحالهم ويتذكّرون الحكايةَ كلَّها:

فإنّ فيهم من لن يرحم المحتلّ بنسيان الشهيد.

حتى إن لم يكنْ بصراخ.

ثمة من سيظلّ يصرّ باسمه صريرَ الجنادبِ في آذان الغزاة..

هولندا

19 ـ آذار ـ 2006.

* شاعر من العراق

قص

طعام الأسود...

فيصل عبد الحسن *

■ شاءت الأقدار أن احصل على عمل ـ بعد بحث طويل ـ في حديقة للحيوانات، لم تكن عندي الخبرة اللازمة للعناية بأي نوع من الحيوانات، فقد كنت في طفولتي لا أطيق القطط وأخاف الكلاب ويشتد هلعي إذا سمعت من يقول أن في الدار فأراً، ولا يهدأ لي بال حتى أتأكد أنه تم القضاء على ذلك الفأر الذي هدد أمننا المنزلي، واعتقدت في البداية أن العمل في حديقة الحيوانات لا يتعدى النزهات اليومية طوال شهر وخلال ذلك يمكنني قراءة كل الكتب التي لم أنجز قراءتها بعد والتي أكتريها بالدين من صاحب الكشك القريب من مسكننا، وفي نهايته أقبض راتباً يكفيني ذل السؤال والهروب المستمر من الدائنين في هذه المدينة البشعة التي يعيش نصف أهلها على أعمال وهمية وتقديم خدمات للسائحين وإمتاع أوقاتهم بتقديم ألوان الفلكلور أمامهم.

قدمتني السكرتيرة إلى مدير الحديقة. كانت صغيرة، فاتنة، ولها لفتة ظبي وعينا يمامة، ويبدو أنها أوضحت للمدير سبب مجيئي للحديقة قبل دخولنا عليه، فقد حدجني المدير بنظرة متفحصة ثم رأيته يشيح بوجهه عني، وحدست بخبرتي أنه سيعبر لي عن رفضه، ويعتذر عن تعييني في الوظيفة الشاغرة، فاندفعت صوبه أرجوه أن يعطيني هذه الفرصة، وكررت أمامه أني سأبذل ما في وسعي من جهد في هذا العمل وبمنتهى الأمانة والإخلاص، نظر إلي المدير من جديد كأنما ليتأكد من صدق توسلاتي وبعد أن فكر قليلاً بدا وكأن قلبه رق لحالي، لكنه هز رأسه متشككاً في قدرتي على تأدية متطلبات الوظيفة، وسألني أن كنت قادراً على العيش مع الأسود؟!! وهذه هي حقيقة العمل المطلوب كما وضح لي... وردد: العيش مع الأسود وأسود معقدة تكره حتى نفسها لأنها لم تذق اللحم الحقيقي منذ تشرفت بالعيش معنا.. (وضحك)، فأجبته: إنني أستطيع ذلك، وهذا هو العمل المناسب الذي كنت أبحث عنه، قال المدير بنفس لهجته الساخرة: (ربما سنطلب منك يوماً تنظيف أسنان الأسود بالفرشاة ومعجون الأسنان!!)

فكرت: (طول عمري لم أسمع أن أحداً نظف أسنان أسد في حديقة حيوان أو سيرك بفرشاة ومعجون أسنان..)

وتساءلت: ربما كانوا يفعلون ذلك دون أن أعرف، فمن يعرف أسرار هذه المهن الصعبة؟

لم أستطع التراجع عن استعدادي للعمل بالرغم من جسامة المخاطر الموعودة وإحساسي بأن بدني يرتجف فرقاً منذ الآن. حقيقة كنت بحاجة ماسة للعمل وأضفت لتلك الحاجة الاستحياء من إظهار خوفي أمام السكرتيرة الصغيرة الحلوة، ومديرها الذي لم يترك وسيلة لم يستخدمها لتخويفي من العمل إلا وتحداني بها.. وأخيرا أمام صمودي البطولي الكاذب هز المدير رأسه موافقاً على تعييني كمساعد مُطْعِم للأسود – تحت التجربة – فكرت في نفسي: إنني لَم أجرب إطعام أسود من قبل... لكنني لم أنبس بكلمة، وخرجت من غرفة المدير مرتبكاً أتبع السكرتيرة لتسجيل بياناتي في مكتب شؤون العاملين المجاور، وأنا أفكر بطريقة تجنبني هذا العمل الخطر وسأبذل أي جهد لأجد من يتوسط لي لنقلي إلى عمل آخر في الحديقة غير هذا العمل، والمهم الآن أنني وضعت قدمي في هذا المكان ووجدت عملاً في مدينة العاطلين هذه، وبعد أن سجلت بياناتي اصطحبني أحد العاملين في جولة تعريفية بأقسام الحديقة، فلاحظت الأسود كسيرة النفوس مهيضة العزة، ولا تبدو عليها مهابة الأسود التي نراها عادة في الصور الفوتوغرافية وأفلام التلفزيون.

عرفت من العامل أن عملي يتلخص بتقطيع شرائح اللحم لتقديمها إلى الأسود والنمور واللبؤات مرتين في اليوم، المرة الأولى في الصباح والثانية قبل الغروب بقليل، فكرت في نفسي: (هذا أمر بالغ السهولة!! وسأقضي بقية يومي متنزهاً في الحديقة بين قمرات الطيور والعصافير الأفريقية الملونة وحظائر الزرافات وأحواض الدلافين، وربما سأحظى بين الحين والآخر بقطعة لحم أحملها عند عودتي من العمل إلى الدار لتعدها زوجتي لنا كأفضل ما أكلناه طوال الشهور الستة الماضية.

في اليوم الأول من أيام عملي اكتشفت أن كميات ضخمة من اللحم المستورد تجلب بالسيارات المبردة، وتحفظ في برادات القسم الإداري التابع للحديقة، وأوصاني – المُطْعِم الأول – أن أقتطع الأجزاء الطيبة، وفيرة اللحم من الذبائح مع أكبادها وكليها وأحفظها في كيس نايلون، وأخبرني تلميحاً أنها حصة مدير الحديقة ونائبه ومدراء الأقسام، وعلي أن أحملها إلى سياراتهم بعد أن يخرج العمال الى بيوتهم. فكرت بقطعة لحم أهربها إلى خارج الحديقة لتفرح بها زوجتي أيضاً، وسأعطي منها لجيراننا، الذين وقفوا مع عائلتي في فترة بطالتي التي عانينا منها طويلاً وقدموا خلالها لنا مختلف الخدمات والمساعدات العينية بالرغم من فقرهم، التي كانت تذكرني وزوجتي إن الخالق سبحانه لا ينسى عباده فتترقرق الدموع في عيني زوجتي أولاً ثم تنتقل العدوى إلي ويحرص كل منا على أن لا يكتشف الأبناء سر هذه الدموع المنهملة فنصير محط سخرية أكبر أولادنا، الذي غالباً ما يعيرنا بأننا نحول أحداث الحياة إلى أفلام هندية نتباكى عليها!! وحاولت أن أتخيل إمارات العرفان على وجوه الجيران، وكل واحد منهم يستلم حصة من ذلك اللحم الطازج، الذي لم أر أفضل منظراً منه في كل مجازر المدينة، وأوشكت على قول: أن لا شكر بين الجيران لقد عملنا الواجب لا أكثر... وتخيلت كلمات الشكر تنهال علي..

انتعشت الآمال في نفسي بحياة كريمة وربما لأول مرة في حياتي وشعرت أن ثمة أملاً حقيقياً في عيش حياة عائلية مستورة منذ هذا اليوم، وقد أمضينا فترة طويلة من أعمارنا في الفقر والحاجة، وقد قست الحياة علينا كثيراً في بعض الأحيان اضطررنا للاقتراض من هذا وذاك، ولم نتوقع يوماً حسناً على الإطلاق، لكننا لم نفكر بيوم أبعد من يومنا، كنا نفكر بتدبير مؤونة يومنا فقط أما الغد أو لماذا نحن وغيرنا بهذه الحال المزرية، فذلك في علم الأقدار التي أتت بنا إلى هذا الوجود.. عندما شاهدني مدير المخازن الأصلع أتجول كثيراً قريبا من البرادات ولصفة الطمع بالحصول على شيء من اللحم تشع في عيني، ولقد رآني كلما ذهبت بعيداً إلى أطراف الحديقة عدت مجدداً إلى موقع البرادات كأنما كان هناك خيط لا يُرى يقيدني بالبرادات وكلما ابتعدت سحبني من جديد إليها وأنا أتخيل وجوه جيراني عندما يستلمون مني حصتهم باللحم الذي سأجلبه معي، وعندما رآني المدير أقترب من جديد ناداني وسألني عن هدفي من هذه المسيرة المكوكية؟!

فأخبرته بكثير من الارتباك والأدب المفتعل أنني عامل جديد معيّن في الحديقة ولا أعرف أين أقضي وقت الراحة القصيرة، فنظر صوبي ووجهه ينبئ بتهديد ووعيد، وطلب مني أن أبتعد عن البرادات ولا أعود إليها إلا حين يصطحبني رئيسي المباشر! كانت أقواله أوامر، وربما كانت ستتبخر أحلام أحد غيري بعد هذه التهديدات ولكن هيهات أن يحدث هذا لي..

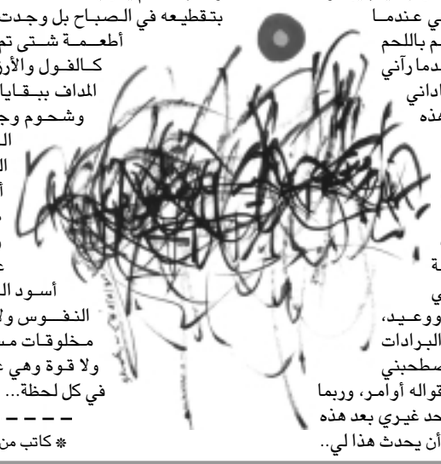

انتعشت آمالي مجدداً بعد ساعة حين رأيت مدير المخازن الأصلع يغادر الحديقة صوب الخلاء المؤدي إلى الخارج.. وعندها فقط شعرت أن الفرصة قد حانت لحصولي على اللحم أكثر من أي وقت آخر، اتجهت على الفور إلى قسم البرادات طالباً حصة اللحوم الخاصة بقسم الأسود فأخبرني الموظف أن الوقت المحدد لإعطاء وجبة الطعام لم يحن بعد، لكنهم بعد أخذ ورد سلموني الكمية على مسؤوليتي..

حين قلبت ما استلمته منهم شعرت بالغثيان والقرف فلم يكن باللفافات اللحم ذاته الذي قمت بتقطيعه في الصباح بل وجدت مزيجاً غريباً من أطعمة شتى تم خلطها بحذق، كالفول والأرز وفتات الخبز المداف ببقايا أمعاء مثرومة وشحوم وجلود، وقد رش ذلك الخليط العجيب بدم الذبائح وأخبروني أن ما معي هو طعام الأسود!! وعندها فقط عرفت لماذا بدت أسود الحديقة كسيرة النفوس ولا تطيق ذواتها، مخلوقات مسكينة لا حول لها ولا قوة وهي على وشك الانهيار في كل لحظة...

* كاتب من العراق يقيم بالمغرب